أحاديث إصلاح القلوب

(٣٦)

الإيمان باليوم الآخر

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا؛ فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ**

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَاىَ وَوَعَاهُ قَلْبِى. رواه مسلم(١).

هذا الحديث العظيم فيه بيان أهمِّيَّة الإيمان باليوم الآخر وأثرُه العظيم على العبد في صلاح قلبه ونجاته من فتن الدُّنيا ونجاته من عذاب الآخرة، وأنَّ مَن أحبَّ لنفسه الزَّحزحة عن النَّار ودخول الجنَّة فعليه أن يكون ملازمًا للإيمان باليوم الآخر إلى أن يتوفَّاه الله وهو على هذا الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

فقوله: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ فيه أثر الإيمان باليوم الآخر على القلوب ومكانته العليَّة في تزكية النُّفوس وإصلاح العباد، وأنَّ العبد كلَّما كان على ذكرٍ واستحضارٍ لذلك اليوم، وأنَّ ثمَّة يوم يحاسب فيه ويعاقب، فيه جنَّة ونار، ولقاء بالجبَّار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسؤال عمَّا قدَّم في هذه الحياة كان

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

لذلك عظيم الأثر على قلبه صلاحًا واستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمَّا إذا ضعُف هذ الإيمان في قلب الإنسان أو انعدم؛ فإنَّ الخير يضعف وينعدم تبعًا لضعفه أوانعدامه؛ ولهذا كان من أولويَّات الدِّين وأعظم ما ينبغي أن يُعنى به المسلمون إصلاح الاعتقاد الَّذِي هو للدِّين بمثابة الأصول للأشجار والأعمدة للبنيان.

وكم يترتَّب من الآثار السَّيِّئة والعواقب الوخيمة حينما يغفل الإنسان عن البعث وعن الجزاء وعن الحساب!! وينسى أنَّ هذه الأعمال الَّتِي يقترفها ويباشرها في هذه الحياة ستكون محضرة كلُّها يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠]. وأنَّه يُجزى عليها بمثاقيل الذَّرِّ!! ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة:٧-٨]، وإن نسيَ ذلك فإنَّه محصًى عليه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة:٦]، ومكتوبٌ يجد كلَّ ذلك حاضرًا يوم القيامة، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]؛ ولهذا فما أعظم أن يكون العبد في هذه الحياة يظنُّ -أي: يعتقد- أنَّه سيلقى الحساب، وكلَّما حدَّثته نفسه بخطيئة أو مخالفة أو تهاونٍ في طاعة أو تفريطٍ في عبادة أو تضييعٍ لواجب ذكَّرها بهذا المقام العظيم، ﴿إِنِّ

ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٠]، أي: يا نفس إنَّك ستحاسَبين، وستقفين بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للجزاء والحساب فيوم عسير إلَّا على المؤمن المطيع لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإنَّه يكون يسيرًا عليه بتوفيقٍ الله سبحانه ومنِّه.

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعنى بهذه العقيدة عقيدة الإيمان باليوم الآخر؛ فإنَّها إذا وجدت في القلب كان وجودها وقيامها وقرارها فيه قياما للدِّين .

ثمَّ إنَّ إيمان أهل الإيمان باليوم الآخر على درجتين:

الدَّرجة الأولى: هي درجة الإيمان الجازم؛ وهو الَّذِي لا يقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من العبد عمله وطاعته وعبادته إلَّا إذا كان هذا القدر موجودًا عنده؛ إيمانًا جازمًا بحيث يكون عنده يقين لا شكَّ فيه ولا ريب بالبعث والحساب والجزاء والعقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥] أي: أيْقنوا ولم يشكُّوا، فهذا القدر مطلوب من كلِّ مسلم، فإذا لم يكن عند العبد يقينٌ بالبعث والجزاء والحساب وعنده بدل اليقين الشَّكُّ فإنَّ هذا كفرٌ محبِطٌ للأعمال ومبطِلٌ للدِّين، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥].

والدَّرجة الثَّانية وهي درجة عالية عظيمة إذا وُفِّق لها العبد: وهي درجة الإيمان الرَّاسخ؛ وهي الَّتِي يكون فيها الإيمان بهذه الحقائق العظيمة راسخًا

في القلب، متمكِّنًا من النَّفس، حاضرًا مع العبد؛ فتجد هذا الرُّسوخ في الإيمان حاضرًا مع العبد في المقامات والأحوال المتنوِّعة، فتجده في كلِّ مقام على ذكرٍ للبعث والجزاء والحساب؛ فيكون لهذا الرُّسوخ في الإيمان أثرٌ عظيمٌ للغاية في صلاح العبد واستقامته في أحواله كلِّها؛ بل وفي ترقِّيه في درجات الكمال؛ ممَّا ينال به يوم القيامة رفيع المنازل في جنات النَّعيم.

وعندما يتأمَّل المسلم في الإيمان باليوم الآخر بدءًا من دخول الإنسان في قبره، والتَّفاصيل الكثيرة المذكورة في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يكون في القبر وما بعده من البعث والحشر والحساب والجزاء والنَّار وغير ذلك، سيكون له الأثر البالغ عليه في رقَّة قلبه وخشيته لربِّه وإقباله على طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عن إبراهيم التَّيميِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثَّلت نفسي في الجنَّة آكل ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثمَّ مثَّلت نفسي في النَّار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها؛ فقلت لنفسي: أي نفسي، أيَّ شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدُّنيا فأعمل صالحًا قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»[1]. رواه ابن أبي الدُّنيا في كتابه محاسبة النَّفس.

فكم في تذكُّر المآل من أثر في زمِّ النَّفس وأطرها على الحقِّ، وكم في الغفلة عنه من أثر في انفلاتها وانسياقها وراء الملذَّات الفانية.

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس (١٠).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشَّواهد إشارة يُعلم بها حقيقة الأمر؛ فأوَّل شواهد السَّائر إلى الله والدَّار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدُّنيا وحقارتها وقلَّة وفائها وكثرة جفائها وخسَّة شركائها وسرعة انقضائها...»(١).

ثمَّ قال: «فإذا قام بالعبد هذا الشَّاهد منها ترحَّل قلبه عنها، وسافر في طلب الدَّار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها وأنَّها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار ومحطُّ الرِّحال ومنتهى السَّير»(٢).

ثمَّ قال: «ثمَّ يقوم بقلبه شاهد من النَّار وتوقُّدها واضطرامها وبُعد قعرها وشدَّة حرِّها وعظيم عذاب أهلها فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُود الوجوه زُرق العيون والسَّلاسل والأغلال في أعناقهم، فلمَّا انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع وقد تقطَّعت قلوبهم حسرةً وأسفا، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣]، فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون وأتى النِّداء من قبل ربِّ العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصَّافَّات:٢٤]، ثمَّ قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٧).

(٢) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٨).

ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطُّور:١٤-١٦]. فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يُسحبون وفي النَّار كالحطب يُسجرون، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ [الأعراف:٤١]، فبئس اللِّحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدَّة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم في أجوافهم وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم وطعامهم الزَّقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]، فإذا قام بقلب العبد هذا الشَّاهد انخلع من الذُّنوب والمعاصي واتِّباع الشَّهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوَّة هذا الشَّاهد يكون بُعده من المعاصي والمخالفات؛ فيذيب هذا الشَّاهد من قلبه الفضلات والموادَّ المهلكة ويُنضجها ثمَّ يُخرجها فيجد القلب لذَّة العافية وسرورها؛ فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنَّة وما أعدَّ الله لأهلها فيها ممَّا لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عمَّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النَّعيم المفصَّل الكفيل بأعلى أنواع اللَّذة من المطاعم والمشارب

والملابس والصُّور والبهجة والسُّرور، فيقوم بقلبه شاهد دارٍ قد جعل الله النَّعيم المقيم الدَّائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لبِن الذَّهب والفضَّة وقصَب اللُّؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحةً من المسك وأبرد من الكافور وألَذُّ من الزَّنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهُنَّ في هذه الدُّنيا لغلب على ضوء الشَّمس، ولباسهم الحرير من السُّندس والإستبرق، وخدَمهم ولدان كاللُّؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣-٣٤]، وغذاؤهم لحم طير ممَّا يشتهون، وشرابهم عليه خمرة، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصَّافَّات:٤٧]، وخضرتهم فاكهة ممَّا يتخيَّرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللُّؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متَّكئون، وفي تلك الرِّياض يُحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون. فإذا انضم إلى هذا الشَّاهد شاهد يوم المزيد والنَّظر إلى وجه الرَّبِّ جلَّ جلاله وسماع كلامه منه بلا واسطة كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**بينا أهل الجنَّة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرَّبُّ تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم وقال يا أهل الجنَّة سلام عليكم ثمَّ قرأ قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، **ثمَّ يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**»[(١)]. فإذا انضمَّ هذا

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤).

الشَّاهد إلى الشَّواهد الَّتِي قبله فهناك يسير القلب إلى ربِّه أسرع من سير الرِّياح في مهابِّها فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا...»[(١)]. إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكم لهذا من الأثر البالغ على العبد في صلاح قلبه وطاعته لله جَلَّوَعَلَا!! وبعده عن معاصيه.

أصلح الله قلوبنا أجمعين وزكَّاها بالإيمان، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٨ - ١٥١).